في الذكرى الثالثة لرحيل العلامة أبو القاسم سعد الله

رسالة جوابية إلى الدكتور أبو القاسم سعد الله[1]

الدكتور عبد الحق شرف، جامعة تيارت

ملخص:

تعد المراسلات الديوانية أو الإخوانية وحتى الأدبية، مصدرا مهما لكتابة التاريخ. وقد شاع هذا الفن قديما وحديثا على حدٍّ سواء، فأبدع فيه من اشتغل به مُرسِلا أم مُرسَلاً إليه.

وفي هذا الصدد ارتأينا أن نقدم لباحثينا وقرائنا إحدى الرسائل التي كان لنا شرف تبادلها مع المؤرخ الكبير، رائد المدرسة التاريخية الجزائرية الحديثة، الفقيد الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله.

Abstract:The diwaniya or brotherly correspondence, even the literary one, is an important source of history. This art has become widespread both in the past and in the modern times.

In this regard, we decided to present to our researchers and readers one of the letters that we had the privilege of sharing with the great historian, the pioneer of the modern Algerian historical school, the Professor Abu Al-QasimSaadullah, might God have mercy upon him.

مقدمة:على الرغم من مرور تسع سنوات على رسالة المرحوم الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله إليّ، فإن وقعها بقي متجذّرا في نفسي، وذكراها عالقة في ذهني. مازلتُ أتذكّر جيدا يوم أهديته نسخة من مذكرتي للماجستير بعنوان: "**العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفى 1895 حياته وآثاره**"[2]. وكان قد حملها إليه مشكورا من معهد الحضارة الإسلامية بوهران وقتها؛ الأستاذ الدكتور بوعلام بلقاسمي الذي كان يتولى حينها رئاسة المجلس العلمي للمركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، بالأبيار.

لقد كانت هذه المناسبة بحق من أسعد الفترات في حياتي العلمية، خاصة وأن الموضوع الذي بحثت فيه وكتبت عنه بحثا كاملا، سبق وكتب عنه المرحوم الدكتور سعد الله مقالة بمجلة الثقافة[3] تحت عنوان: "**مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر**"، وفي الكثير من المحطات في تاريخ الجزائر الثقافي؛ وكذا الجزء الثاني من كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. فقلت حينها في قرارة نفسي: إنّ أحسن ما يُهدى للأستاذ سعد الله هو هذا البحث، علّه يكون ثمرة من الثمار اليانعة التي رعاها –رحمه الله– حتى أصبحت جاهزة للقطف.

ومهما كانت الملاحظات والنصائح التي قدمها لي رحمه الله مشكورا، فإنني أقول وبكل فخر واعتزاز: إنه كان حليما رفيقا، نِعْمَ الناقد، ونِعمَ الموجّه. لقد استطاع بملاحظاته تلك أن يسبر أغواري، وأن يقف على مكمن الخلل في بحثي، فقدم لي خير دواء وخير نصيحة، كانا لي خير سند في إتمام مشاريعي المستقبلية خاصة أبحاثي في الدكتوراه، والتي استمرت مدة خمس سنوات كاملة كلّها بحث وتنقيب في فكر المشرفي ودراسة لآثاره.

إنني اليوم وبين يدي هاته الكلمات التي أخلّد بها ذكرى أستاذي المرحوم الدكتور سعد الله، أقف وقفة إجلال وإكبار لكل مؤرخي الجزائر، في كل ربع من ربوعها الطاهرة، وأخص بالذكر منهم شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد المجيد بن نعمية، الذي أفنى أزهى فترات العمر في تكوين حاملي لواء العلم والمعرفة ببلادنا، فله منا خالص الشكر والثناء.

ثم إنّ ما أتمناه اليوم وبعد مرور ثلاث سنوات على وفاة العلامة الدكتور أبو القاسم سعد الله، –والذي لا زلت أحسّ بحنين كبير إليه كلما قرأت رسالته إليّ، وإلى نصائحه الرشيدة– أن أقدر على العمل بنصيحته؛ وتحقيق أمنيته لما خاطبني قائلا: "أتمنى أن تجد الوقت والصحة لتبحث وتتعمق أكثر في فكر المشرفي وأحكامه على أهل عصره، ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على جميع آثاره المكتشفة والتي ما تزال في طي الكتمان أو النسيان".

وإنني إذ أقول ذلك، فإنّ ما كُتِب؛ كُتب كلّه بقلب مفتوح، وحب لا محدود أكنه له —رحمه الله– لذا فأنا متأكد أنه وحيث يوجد الآن في عالم البرزخ، سيبلغه ثواب أعماله كلّها، والتي خدم بها الإنسانية، بل وتفانى في ذلك أيّما تفانٍ.

وقد لا يسع المجال هاهنا للتعليق على الرسالة كاملة، لكن أهم ما يقال عنها: هو أنها حوت إشارات مهمة عن حياة المشرفي، وعن مصادر ترجمتها، وهي في الحقيقة تدخل ضمن الاجتهادات الشخصية للدكتور سعد الله خلال جمعه لمادة كتابه تاريخ الجزائر الثقافي. وأضع هذه الرسالة اليوم بين يدي القراء والباحثين علّها تكون جزءا من البناء التاريخي الوطني.

رحم الله أستاذنا وشيخنا الدكتور سعد الله، وإلى جنات الخلود إن شاء الله آمين.

د/ عبد الحق شرف، جامعة تيارت، الجزائر

ليلة 13ديسمبر 2016

والآن أترك القارئ الكريم وأدعه بين يدي الرسالة؛ لتحكي له في صمت قصة الوصية الخالدة من الشيخ المربّي الدكتور سعد السعود –رحمه الله– علّها تكون نبراسا نستنير به في حياتنا العلمية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عبد الحق شرف، وهران. السلام عليكم، وبعد:

أشكركم على إهدائي نسخة من مذكرتكم للماجستير عن (**العربي المشرفي وآثاره**). وقد تصفحتها باهتمام، لأن سيرة ومؤلفات المشرفي سبق لي التعرض إليها ودراسة بعضها.

وفي الحال اعتقدت أن صاحب المذكرة يكون قد سافر إلى المغرب واطلع على أرشيفه وعلى مؤلفات أخرى للمشرفي، ولكني وجدت صاحب المذكرة اقتصر على ما في الجزائر وما قرأه هنا وهناك عن هذه الشخصية المتنوعة الإنتاج.

المذكرة عبارة عن حشد للمعلومات وجمع لآثار المشرفي، وحتى هذه العملية غير كاملة. لأن المشرفي كان أيضا يتردد على الجزائر، وكانت له صلات ببعض المستشرقين الفرنسيين يستفيدون منه لمعرفة أحوال المغرب قبل الحماية. وقد نوّه المشرفي على العموم بأعمال فرنسا في الجزائر وفضل معاملتها للعلماء، ورجال الدين على معاملة السلطات المغربية لعلماء المغرب ورجال الدين هناك. ومن الذين كانوا يطلبون منه الكتابة عن الجزائر والمغرب: روني باصيه، عميد الدراسات الأدبية في المدرسة العليا بالجزائر. وقد كتب عنه وعن معاصره التونسي (محمد بيرم الخامس)، المستشرق هنري بيريز وقارن بينهما في الحكم على عمل فرنسا في الجزائر، فأحدهما (المشرفي) معجب، والآخر (بيرم) منتقد.

وأنت لم تذهب إلى المغرب فيما يبدو، ولكنك لم تذهب أيضا إلى ما هو أقرب وأسهل في الوصول إليه مثل زاوية الهامل أو البشير ضيف لتطّلع مثلا على ما هناك في عين المكان من مؤلفات المشرفي ولو كانت مصورة.

وبودي أن تعرف أن كتاب (ذخيرة الأواخر) قد حققه تحقيقا جزئيا طيبا الأستاذ عبد المنعم القاسمي، وهو من زاوية الهامل (بوسعادة) وأستاذ في جامعة ورقلة. ولا أدري إذا كان نشر تحقيقه أم لا.

هناك أمور قد توقعك في إشكال إن هي بقيت في المذكرة على حالها: مثلا تقول عن بني شقران (ص90 هامش4) أنهم قبيلة بالمغرب الأقصى. وأين قبيلة بني شقران الجزائرية؟ ألست تتحدث عن بني شقران في منطقة معسكر؟

إنه لا يسعني إلاّ شكرك على التنويه بمساهمتي عن المشرفي. وقد جمعت معلوماتي عنه أثناء (رحلتي إلى المغرب) التي لعلك اطلعت عليها، ولم أذهب إلى المغرب من أجل المشرفي ولكن من أجل جمع مادة لكتابي تاريخ الجزائر الثقافي، لذلك بقيت أمور عن المشرفي لم يسعن الوقت للاطلاع عليها. وكتاباته غنية بالملاحظات والآراء عن المجتمعين الجزائري والمغربي في القرن التاسع عشر، وهو رجل خَبِرَ الحياة وأعيان الناس في البلدين، ولم يكن رجلا عاديا مهمشا رغم شكراه من أهل فاس.

أتمنى أن تجد الوقت والصحة لتبحث وتتعمق أكثر في فكر المشرفي وأحكامه على أهل عصره، ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على جميع آثاره المكتشفة والتي ما تزال في طي الكتمان أو النسيان.

وفقنا الله جميعا للعمل العلمي، والسلامأ.د/ أبو القاسم سعد الله2008/07/21

جوابنا على رسالة الدكتور أبو القاسم سعد الله:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه والتابعين:

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، تحية طيبة وبعد:

وصلنا مكتوبكم الأخير، والمتضمن الملاحظات المتعلقة بمذكرة الماجستير حول "العربي المشرفي وآثاره".

ولا أخفيكم أستاذي الكريم، أنني سعدت كثيرا للتوجيهات والملاحظات المقدمة حول هذا العمل. إلا أنني سأوضح بعض الأمور، والتي ربما ذكرت أغلبها بين طيي المذكرة، لكنني سأبيّنها بالتفصيل في هذا الرسالة.

لم نعتمد على ما هو موجود في الجزائر فقط في إنجاز المذكرة، بل إن المتوفر في الجزائر لهو نزر قليل جدا لا يكف لإنجاز بحث من هذا القبيل. ولذلك استعنت بنسبة كبيرة جدا فاقت الثلثين بدراسات مغربية، وكذا تقارير الأرشيف المغربي وخاصة التقرير الذي نشره ميشو بلير سنة 1907 ضمن الأرشيف المغربي.

كما أنه بودي أن أخبركم أستاذي الفاضل أن هذا العمل لم يكن بالإمكان إتمامه لولا اعتمادي على ما ذُكر سابقا، خاصة في الفصل الثاني منه الذي بذلت فيه قصارى الجهد، واعتمدت فيه على مادة مصدرية لم تنشر بعد –فيما أعلم– خاصة مخطوطات المشرفي نفسه التي جلبتها من المغرب وهي كالتالي:

ديوان نظم في من أيقظ للدين جفن الوسن مولانا الحسن: وهو مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم: 5310.

ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول: مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية، تحت رقم: 2956.

رحلة إلى نواحي فاس: مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية، تحت رقم: 1246.

الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الحعسوس سيء الظن الكنسوس: مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية[4].

ثم إن هذه المخطوطات لم يتسن لنا الحصول عليها إلا بعد عناء كبير، وكلّفتنا الكثير. إلا أننا وبتوفيق من الله تعالى، ثم بإعانة من بعض الأساتذة من الجزائر والمغرب تمكنا من الحصول عليها؛ ونذكر منهم: الأستاذ الدكتور بن نعمية عبد المجيد، والأستاذ الدكتور خليفي عبد القادر من جامعة وهران. والدكتور حسن الصادقي من معهد الدراسات الأفريقية، والدكتور عمر أفا جامعة محمد الخامس بالرباط.

وقد اجتهدنا ما أمكننا للحصول على مخطوطات المشرفي الموجودة بالجزائر، وبخاصة زاوية الهامل. واتصلنا في هذا الإطار بالأستاذ عبد المنعم القاسي الذي ذُكر في جوابكم الأخير، وقد زوّدنا مشكورا جدا بالتحقيق الذي قام به حول مخطوط الذخيرة المذكور في الجواب. لكن الذي وصلني من الأستاذ عبد المنعم القاسمي التحقيق الخاص بقسم الجزائر فقط. ومادام التحقيق لم يكن قد نُشر وقتها، بات لزاما علينا الاعتماد على النسخة المخطوطة التي حصلنا عليها من المغرب، خاصة بعد أن طلبتُ النسخة المخطوطة كاملة من المحقق، لكنه اعتذر بعدم توفرها عنده كاملة، وهو ما جعلني أصرف النظر عن الزاوية الهاملية بعد أن تأكدت أن لا وجود لمخطوطات المشرفي بها، بعد اطلاعي على فهرستها المنشورة سنة 2006 ضمن مطبوعات دار الغرب الإسلامي، وكذا سؤال القيّمين عليها.

وأما ما تعلق بالإشكال المذكور في الرسالة حول بني شقران (صفحة 90 هامش4) من المذكرة. فإن المعلومة على ما يبدو صحيحة، والمقصود بها هو قبيلة بني شقرون المغربية، وليس قبيلة بني شقران بمنطقة معسكر. أما قبيلة بني شقرون فهي قبيلة مغربية بالأطلس المتوسط بالمغرب الأقصى[5]، وقد أثبتناها كتابة ببني شقرون، وليس بني شقران.

وفي الأخير، أجدد شكري لكم، وأدعو الله تعالى أن يمدّ في عمركم ويبارك فيه، لكي نستفيد من توجيهاتكم وتسديداتكم العلمية.

أ/عبد الحق شرف، وهران2008/7/29

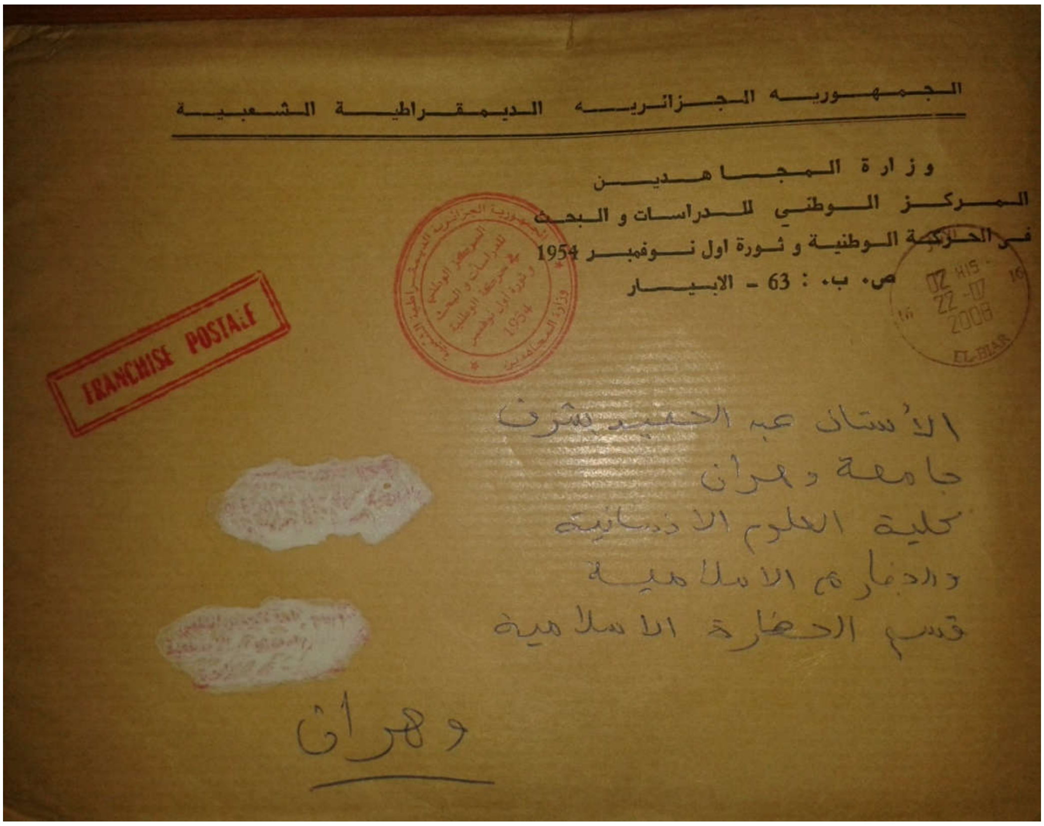

غلاف الرسالة الموجهة إلينا من طرف المرحوم الدكتور سعد الله وعليها الختم والتاريخ

النص الأصلي لرسالة الدكتور أبو القاسم سعد الله وعليها توقيعه الشخصي في الأخير

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عبد الحق شرف، وهران

السلام عليكم، وبعد

أشكركم على إهدائي نسخة من مذكرتكم للماجستير عن (العربي المشرفي وآثاره). وقد تصفحتها باهتمام لأن سيرة ومؤلفاة المشرفي سبق لي التعرض إليها ودراسة بعضها.

وفي الحال اعتقدت أن صاحب المذكرة يكون قد سافر إلى المغرب واطلع على أرشيفه وعلى مؤلفات أخرى للمشرفي، ولكني وجدت صاحب المذكرة اقتصر على ما في الجزائر وما قرأه هنا وهناك عن هذه الشخصية المتنوعة الإنتاج.

المذكرة عبارة عن حشد للمعلومات وجمع لآثار المشرفي. وحتى هذه العملية غير كاملة. لأن المشرفي كان أيضا يتردد على الجزائر، وكانت له صلات ببعض المستشرقين الفرنسيين يستفيدون منه لمعرفة أحوال المغرب قبل الحماية. وقد نوه المشرفي على العموم بأعمال فرنسا في الجزائر وفضل معاملتها للعلماء ورجال الدين على معاملة السلطات المغربية لعلماء المغرب ورجال الدين هناك. ومن الذين كانوا يطلبون منه الكتابة عن الجزائر والمغرب: روني باصيه، عميد الدراسات الأدبية في المدرسة العليا بالجزائر. وقد كتب عنه وعن معاصره التونسي (محمد بيرم الخامس): المستشرق هنري بيريز وقارن بينهما في الحكم على عمل فرنسا في الجزائر، فأحدهما(المشرفي) معجب، والآخر (بيرم) منتقد.

وأنت لم تذهب إلى المغرب فيما يبدو، ولكنك لم تذهب أيضا حتى إلى ما هو أقرب وأسهل في الوصول إليه مثل زاوية الهامل أو البشير ضيف لتطلع مثلا على ما هناك في عين المكان من مؤلفات المشرفي، ولو كانت مصورة.

وبودي أن تعرف أن كتاب (ذخيرة الأواخر) قد حققه تحقيقا جزئيا طيبا الأستاذ عبد المنعم القاسمي، وهو من زاوية الهامل (بوسعادة) وأستاذ في جامعة ورقلة. ولا أدري إذا كان قد نشر تحقيقه أم لا.

هناك أمور قد توقعك في إشكال إن هي بقيت في المذكرة على حالها: مثلا تقول عن بني شقران (ص 90 هامش 4) أنهم قبيلة بالمغرب الأقصى. وأين قبيلة بني شقران الجزائرية؟ ألست تتحدث عن بني شقران في منطقة معسكر؟

إنه لا يسعني إلا شكرك على التنويه بمساهمتي عن المشرفي. وقد جمعت معلوماتي عنه أثناء (رحلتي إلى المغرب) التي لعلك اطلعت عليها، ولم أذهب إلى المغرب من أجل المشرفي ولكن من أجل جمع مادة لكتابي تاريخ الجزائر الثقافي. لذلك بقيت أمور عن المشرفي لم يسعن الوقت للاطلاع عليها. وكتاباته غنية بالملاحظات والآراء عن المجتمعين الجزائري والمغربي في القرن التاسع عشر. وهو رجل خبر الحياة وأعيان الناس في البلدين، ولم يكن رجلا عاديا مهمشا رغم شكواه من أهل فاس.

أتمنى أن تجد الوقت والصحة لتبحث وتتعمق أكثر في فكر المشرفي وأحكامه على أهل عصره، ولا يكون ذلك إلا بالاطلاع على جميع آثاره المكتشفة والتي ما تزال في طي الكتمان أو النسيان.

وفقنا الله جميعا للعمل العلمي، والسلام.

أ.د/ أبو القاسم سعد الله

2008/07/21

الهوامش:

1- الرسالة أرسلت من طرفنا إلى الأستاذ سعد الله سنة 2008، وتعميما للفائدة أردنا نشرها تخليدا لذكراه.

2- نوقشت هذه المذكرة يوم 27جوان2007 بكلية الحضارة الإسلامية جامعة وهران، ونلت بها شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية بتقدير حسن جدا. وكانت لجنة المناقشة متكونة من السادة الأساتذة: أ.د. بن معمر محمد من جامعة وهران رئيسا- أ.د. بن نعمية عبد المجيد من جامعة وهران مشرفا ومقررا- د. بوجمعة جهيدة من جامعة وهران مناقشا- د. بوعصبانة سليمان لقمان عمر من جامعة وهران مناقشا.

3- عدد 75، سنة 13، 1983م.

4- هذا المخطوط حققته إلى نهاية الترجمة الرابعة في إطار التحضير لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة وهران. وقد نوقشت الأطروحة يوم 11جوان2012 وحصلت بها على شهادة الدكتوراه في التخصص المذكور بتقدير مشرف جدا. وقد كانت لجنة المناقشة مكونة من: أ.د. بن معمر محمد من جامعة وهران رئيسا – أ.د. بن نعمية عبد المجيد من جامعة وهران مشرفا ومقررا – أ.د. بوجمعة جهيدة من جامعة وهران مناقشا – أ.د. حساني مختار من جامعة الجزائر 2 مناقشا – د. عدة بن داهة من جامعة معسكر مناقشا – د. شخوم سعدي من جامعة بلعباس مناقشا.

5-**قبيلة بنو شقرون**: تحدها شمالا قبيلة زيان، وغربا تادلة، وجنوبا آيت سيري. راجع: مصطفى المشرفي، الحلل البهية، ج2، ص: 167.